(٣٠)

تبعة

زعموا أن المقاومة(١) فى مصر للسلطان الأجنبى قد أصابها الضعف ، ومشى فيها الفتور ، ودب إليها نوع من الخمود حال بينها وبين أن تنتج فى

---

(١) ١٨ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٧

تحقيق الآمال القومية ما كان ينتظر منها ، فلم تتقدم مصر فى سبيل استقلالها كثيرا منذ كانت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، بل مازالت الامتيازات قائمة لا تستطيع مصر أن تلغيها إلا أن تتولى انجلترا حماية المصالح الأجنبية ، وإلغاء الامتيازات بنفسها ، لأن مصر أعجز من أن تثبت لأوربا وللانجليز ، وأقصر باعا من أن تقدم على إلغاء الامتيازات بنفسها كما فعل الفرس والترك ... !

وقد أخذ بعض أصدقائنا يعلل ضعف المقاومة هذا ، ويرده إلى مصادره ، ويبحث عن الذين يحتملون تبعته ، فاهتدى إلى العلة الصحيحة لهذا الضعف ، ووضع يده على الداء الذى كان يجب أن يستأصل منذ ظهرت أعراضه ، والذى أصبح استئصاله الآن ضرورة وطنية لا مندوحة عنها إذا كان قادة الرأى فى هذا البلد — كما نعتقد — لا يزالون يؤمنون بأن الاستقلال حق لمصر ، وبأن الواجب عليهم أن ينتهوا بها إليه .

وهذا الداء الذى انتهى إليه صديقنا ، ووضع يده عليه ، وهو تشعب الأحزاب فى غير داع إلى تشعب الأحزاب . فالمصريون جميعا يطلبون الاستقلال ، ويسعون إليه ويلحون فيه ، ويتمنون لو أتيحت لهم الفرص التى تمكنهم من تحقيقه ، بل من التضحية الكبرى فى سبيل تحقيقه . وقد أقاموا على ذلك أدلة واضحة لاتقبل الشك يوم نهضوا سنة ١٩١٩ يطالبون بالاستقلال ويثورون بالحماية حتى ألغوها .

المصريون جميعا إذن يطالبون بالاستقلال ويلحون فيه ، لا تختلف أحزابهم فى ذلك ، ولم ينشأ من أسباب الخلاف ما يدعو إلى أن تتشعب الأحزاب وتفترق ، وإنما هى — كما يقول صديقنا — الأهواء والأمزجة والمنافع تنشىء الأحزاب وتنقل الأشخاص فيما بينها . وليس فى ذلك شك ولا ريب فالحكم وحده هو الذى أنشأ الأحزاب فى مصر بعد أن كانت كلمة المصريين مجتمعة على المطالبة بالاستقلال والإلحاح فيه ، والتضحية فى سبيله .

وتستطيع أن تتبع تاريخ الأحزاب(١) التى أنشئت فى مصر بعد أن تألف الوفد للمطالبة بالاستقلال وأيدته الأمة المصرية كلها ، لم يشذ منها شاذ . ولم يخرج عليها خارج فسترى أن الأمل فى الوصول إلى الحكم والسيطرة على الأمور . وتحقيق المنافع لبعض الجماعات وبعض الأفراد ، هو الذى ألف هذه الأحزاب واحدا إثر واحد ، وهو الذى جعل فى مصر هيئات سياسية مختلفة تحترب فيما بينها وتقتتل ويسىء بعضها إلى بعض ، ويغرى بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض . وهى كلها تسعى إلى تحقيق غرض واحد . هو الاستقلال .

وهذه الأحزاب وإن تشعبت ليست كثيرة ، وليس تاريخها بعيدا يحتاج إلى الجهد والتعب فى درسه وتحقيقه . فأنت تستطيع أن تحصى ما نشأ منها بعد الحركة الوطنية ، وتستقصى الأسباب التى دعت إلى نشوئه ، وتستقصى كذلك الأسباب التى دعت إلى تطوره ، وتستقصى كذلك الأسباب التى دفعته حينا إلى الشمال حتى اتصل بالوفد وكاد يندمج فيه ، ودفعته حينا إلى اليمين حتى انفصل عن الوفد ونصب له الحرب. تستطيع أن تستقصى هذا كله فلن تحتاج إلى مشقة ولا إلى جهد لتنتهى بهذا

---

(٢) عرفت الأحزاب فى مصر قبل سنة ١٩١٩ ، فظهر الحزب الوطنى ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . ثم إن الحياة النيابية لا يمكن أن تتحقق إلا مع وجود الأحزاب السياسية .

إن الذين اختلفوا مع سعد زغلول كانوا يريدون التساهل مع الانجليز وقد سبق لهم أن قبلوا الحماية ، وتعاونوا مع سلطات الاحتلال فى خلال الحرب العالمية الأولى . كما عارضوا مصطفى كامل فى معاداة الانجليز وكان شعارهم « سياسة المسالمة ، لا المعاندة » وهم أعضاء حزب الأمة الذى تغير اسمه إلى حزب « الأحرار الدستوريين » .

ثم أنشأ الملك فؤاد حزب الاتحاد ليتخذه ستارا يحكم الأمة من ورائه وليسهل عليه اقتناء الأطيان الواسعة والأموال الطائلة . ثم أنشأ اسماعيل صدقى حزب الشعب ، ومكن لسلطة الملك . أما الأمة المصرية فلم تعترف بهذه الأحزاب ، وظلت متمسكة بحزب الوفد إلى سنة ١٩٥٢ حيث صدر قرار بحل الأحزاب ، لأن تحويل الأمة عن حزب الوفد كان أمرا مستحيلا .

الاستقصاء إلى شيء واحد ، هو أن الطموح إلى الحكم قد أنشأ الأحزاب ، وأن الطموح إلى الحكم قد ترجح بالأحزاب فمال بها إلى اليمين مرة ، وإلى الشمال مرة أخرى .

ومادام الأمر كذلك فلابد للأشخاص أن يتنقلوا بين الأحزاب ، منهم من تغريه المنفعة فيميل من شمال إلى يمين ، ومنهم من يضيق صدره بالمداورات والمناورات وتقديم المنافع الخاصة على المنافع العامة واتخاذ الشعب وسيلة إلى الحكم حين يجب أن يتخذ الحكم وسيلة إلى تحرير الشعب فيميل من يمين إلى شمال .

نعم ، سبب واحد أنشأ الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد دعا إلى تطور الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد رغب فى الائتلاف ورغب عن الائتلاف هو الحكم . فما أجدر الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية أن تعاود تاريخها الحديث فى وقت واحد متذكرة فإن الذكرى تنفع أحيانا . وما أجدر الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية أن تعود إلى الفكرة الصالحة التى يجب أن تقوم عليها الأحزاب ، وهى أن الحكم وسيلة لا غاية ، وأن سعادة الشعب غاية لا وسيلة ، وأن جهود الافراد والجماعات يجب أن تخلص لتحرير الشعب إن كان مستذلا ، وتعليم الشعب إن كان جاهلا ، وإغناء الشعب إن كان فقيراً .وإن من الإثم أن يتخذ خداع الشعب وتضليله وسيلة إلى الاستمتاع بالحكم والاستئثار بالثروة والجاه والسلطان .

لقد لاحظ صديقنا الذى استكشف هذا الداء ، ووضع يده عليه أن الإنجليز اضطروا أن يقمعوا الحركة الوطنية بقوتهم الانجليزية بعد أن نشأ الوفد ، وقبل أن تنشأ الاحزاب . فلما نشأت الأحزاب استغنى الإنجليز عن قوتهم واستعانوا بالمصريين على إذلال المصريين ، ووجدوا أحزابا تصل إلى الحكم عن طريق الإنجليز حتى إذا اطمأنت فى المناصب ، سخرت جنود الدولة وأموال الدولة لإضعاف المقاومة المصرية ، والتمكين لسلطان الإنجليز ، وهذا — مع الأسف الشديد — حق لا شك فيه .

ولكن استكشاف الحق شيء، والانتفاع بهذا الاستكشاف شيء آخر ! وإذا كان من الخير أن تعرف الداء ، فان من الواجب أن تحسمه وتشفى منه المريض . وأى حسم لهذا الداء الذى استكشفه صديقنا ووضع يده عليه أحسن من أن تعود وحدة الأمة إلى ما كانت عليه قبل نشأة الاجزاب ، ومن أن تجتمع كلمة الأمة كما كانت مجتمعة قبل نشأة الاحزاب ، ومن أن تنحل هذه الاحزاب ويعود أفرادها إلى العمل للشعب ومع الشعب ، لافضل لأحد منهم على صاحبه إلا بالكفاية وصدق الجهاد ، وحسن البلاء فى سبيل الاستقلال .

هذا هو الدواء بعد أن استكشف الداء ، ولكن الانتفاع بهذا الدواء مع أنه واجب وطنى لا سبيل اليه فيما يظهر ، لأن الانجليز ما زالوا يلوحون بالحكم ، ولأن نفوسا ما زالت تهفو إلى الحكم . وما دام الانجليز يلوحون، وما دامت النفوس تهفو وتصبو ، فقد يكون انحلال الاحزاب مستحيلا ، بل قد يكون ائتلاف الاحزاب على ما يحقق المنفعة الوطنية الخالصة عسيرا . وإذن فلابد من أن تمتحن الأمة فى أبنائها كما تمتحن فى حياتها كلها . ولابد من أن تنهض الأمة بجهادين ، فتجاهد الانجليز من جهة ، وتجاهد أصدقاء الانجليز من أبنائها من جهة أخرى !

ولابد من أن تصبر للإنجليز حتى يعجزهم صبرها ، ولابد من أن تحتمل المحنة فى أبنائها حتى ينقطع أمل هؤلاء الابناء فى الحكم أو تردهم ضمائرهم الحية إلى الصفوف . وإذا كان هناك واجب يحسن أن تنهض به الشعوب فى شجاعة وكرامة لتصل إلى الحياة الكريمة المستقلة ، فهو ألاتخدع هذه الشعوب نفسها عن نفسها ، ولا تتعمد الجهل بمواطن الضعف فيها . وإذن فالواجب على الشعب المصرى إن كان يريد أن يعيش حرا كريما أن يعترف أمام نفسه بأن فيه موطنا للضعف ، هى هذه الأحزاب التى نشأت بعد الحركة الوطنية ، والتى تيامن حينا ، وتياسر حينا آخر ، وتأبى أن تسير فى طريق مستقيمة ، لأن الطريق المستقيمة طويلة شاقة ، لا توصل إلى الحكم إلا بعد جهد ثقيل وعناء شديد .

لتكن تبعة ذلك بعد هذا على من تكون ، لتكن على المصريين ، لتكن على الانجليز ، لتكن على فريق من المصريين دون فريق ، فان الذى يعنى من هذا كله هو أن تعرف الأمة موضع الضعف فيها فتجد فى حقها ، وتشتد فى المحافظة على وحدتها ، وتوسع صدرها للذين يريدون أن يعودوا إلى هذه الوحدة ، وتتنكر فى رحمة وإشفاق للذين يأبون إلا أن يتخلفوا عن الصفوف . !